- ٢ -

نشأة الموشحات

الموشحة فى صورها المختلفة تمثل رمزا بالغ الأهمية فى فهم الحضارة والعلاقة بين الشعوب . ونقصد بالصور المختلفة نوع الخرجة فى الموشحة ؛ فهى تارة بلغة رومانثية محضة وتارة أخرى بمزيج من اللغتين الرومانثية والعربية ، وتارة ثالثة بلغة عامية عربية ، وتارة رابعة بلغة عربية معربة . فهى فى كل صورة ترمز لحالة من أحوال الحضارة التى تخثرت فى هذا العمل الأدبى جماليا لتكثف مغزى صور واقعية . يحكى ابن جبير فى رحلته أثناء مروره بعكا أن المدينة قد «انتزعها الافرنج من أيدى المسلمين فى العشر الأول من المائة السادسة ، فبكى لها الاسلام ملء جفونه ، وكانت أحد شجونه ، فعادت مساجدها كنائس ، وصوامعها مضارب للنواقيس ... وطهر الله من مسجدها الجامع بقعة بقيت بأيدى المسلمين مسجدا صغيرا ، يجمع الغرباء منهم فيه لاقامة ... الصلاة . وعند محرابه قبر صالح النبى ... وفى شرق البلدة العين المعروفة بعين البقر ، وهى التى أخرج الله منها البقر لآدم . والمهبط لهذه العين على أدراج وطية ، وعليها مسجد بقى محرابه على حاله ، ووضع الافرنج فى شرقيه محرابا لهم . فالمسلم والكافر (أهل الاندلس يستخدمون كلمة كافر مرادفة للعدو الافرنجى الصليبى فى حال الحرب معه بينما فى السلم تستخدم لفظة النصارى) يجتمعان فيه ، يستقبل هذا مصلاه ، وهذا مصلاه وهو بأيدى النصارى (استخدم كلمة النصارى هنا لحسن سلوكهم تجاه المعبد المشترك) معظم محفوظ (١) . ان المشهد الذى يصفه الرحالة ليس الا موشحة حية تكشف عن التعايش الحميم بين الغالب والمغلوب . المسجد صار خرجة وجسم الموشحة هو الكنيسة التى بنيت عليه دون أن تخفى معالمه ، لقد سيطر ايقاع المسجد الفنى على الكنيسة فصار المغلوب غالبا والغالب مغلوبا : لون من التوازن الانسانى الذى يفتحه تيار الحياة . ومقابل هذه الموشحة الحية توجد موشحة صامتة ، انها مسجد قرطبة وكنيسته . لقد بقى الغالب وحده ومحى شخصية المغلوب لكن روح هذه الشخصية بقيت تخلد تاريخه على هذه الارض ، وتنشره من مقبرة الوجود العدمى فى الواقع الى ملحمة الوجود الفنى فى معمار

---

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، دار مكتبة الهلال بيروت ، لبنان ، ١٩٨١ ، ص ٢٤٩ .

المسجد الهـائل . وكذلك الموشحة ذات الخرجة الأعجمية فهى الآن بين الصمت لاختفاء وظيفتها فى الـواقع الاندلسى الذى صار تاريخا وبين الحيـاة فى أيدى أحفاد الاندلسيين بـالمغرب العربى خاصة وباقى العـالم العربى عامة ، تخليدا لجذورهم وابقاء لرمز يكثف تاريخ جدودهم بما حمل من أمجاد وبؤس فى آن .

وأما احدى صور الواقع الانـدلسى الصارخة للموشحة الحيـة ، فهى أمر «موسى بن موسى بن فرتون بن قسى أمير الثغر الأعلى والثـائر على الامير عبد الرحمن الأوسط ، فقـد تزوجت أمه بعد موت أبيه من أمير من البشكنس أنجب منها ثلاثة أبناء حكموا مملكة بنبلونة (اقليم الباسك حاليا) . وتحالف الأخ الأمير المسلم مع أخوته الملوك المسيحيين ضد الامير الأموى ، وكان دائما يتم تمردهم معا أو مصالحتهم للأمير معا . واقع أنجب شبكة من العلاقات المسيحية الاسلامية والعربية الاسبانية فى غايـة الطرافة والتعقيـد حكمت اطـار العلاقات سلمـا وحربا (١) . كذلك نجد حالات كثـيرة يستعين الأمير المسيحى لحمـاية عرشه بالأمير المسلم والعكس ، وهذه صورة صارخة حكمت العلاقات التى يتحالف فيها مسيحى مع مسلم ضد مسيحى ، أو مسلم مع مسيحى ضد مسلم . أما الصورة الهادئة لهذا الوجود التوشيحى هو مثال قومس بن انتيان كاتب الرسائل للأمير محمد ، الذى من أجله تحول الأحد إجازة لجميع كتـاب الدولة المسلمين (٢) ، «خرجة أعجمية» ، وبـاقى البنية عربى لكن يجرى فى دمـائها إيقـاع الخرجة الأعجمية سواء فى صراعها أو وحدتها مع البنية العربية (ومن أجـل هذا كانت الموشحة فنا شاملا تمثيليا لمغزى الواقع ، والفن الشامل = رقص + غناء + موسيقى + جمهور + شعائر احتفالية) . والأمثلة بعد ذلك لا تحصى وضربنا لها مثلا من الأعياد المشتركة . وهنا يحسن أن نضيف أعياد المواسم الزراعية الاحتفالية ، والتى يشير اليها ابن قزمان فى زجله رقم (٥٠) . إن لابن قزمان فى هذا الزجل «تصويرا لنزهات خلوية له أيام العصير . وتلك الأيام كان يخرج فيها الأندلسيون الى الحقول والأودية ، حيث يبيـتون عدة ليال هنـاك . وقد ذكرها الشعراء فى أشعارهم ، ونقل ابن بسام طرفا منها ، وزمن العصير فى الخريف ،

---

(١) المقتبس ص ٤ ثم الهامش (١) والهامش (٢٨) ، وهوامش محقق المقتبس (د. محمود مكى) تمثل عملا بحثيا ممتازا لا يقرأ النص الأصلى بدونه .

(٢) المقتبس ص ١٣٨ ، وهذا البحث ص ٢٩٢ ، ثم قضاة قرطبة ص ٧٦ ، حول موت قومس ابن انتيان ، والجدل حول موته على الاسلام أو على المسيحية لحسم أمر الميراث . انها موشحة أخرى تمثلها حياة هذا الرجل ، وهذا يذكرنا بـالجدل المستمر حتى اليوم فى كتب تـاريخ الادب الاندلسى حول اسلام ابن سهل الاسرائيلى .

وهو الوقت الذى يجمع فيه العنب ، والاحتفال به فى العالم الغربى قديم . وكان ابن قزمان يشارك فيه ، ويحمل له أجمل الذكريات . ففى الزجل (المذكور) يعطينا صورة عن هذا العيد ، حيث خرج فى رجال ونساء ، ومعهم آلات موسيقية ، يغنون ويرقصون ويعبثون (١) .

وليس غريبا أن تمتزج العربية والأعجمية فى الخرجة ، فالمواسم الزراعية لم تعد تنتمى لفئة دون الأخرى ، إن الزراعة مهنة الجميع ، وأعيادها أعياد للجميع، فهى عنصر من عناصر الوحدة ، ومع ذلك فاسم العيد هنا لا تناسبه الكلمة العربية فيحمل فى الخرجة اسمه الرومانثى اشارة الى جذوره القديمة فى العالم الغربى . وها هى الخرجة (وبيتها (٢)) :

لو رأيت حبيبك ميت بهواك

لس يحب قلب فى الدنيا سواك

منيان ذى بشك لو ان نراك

ولو ان قلبك يكون من حديد

وبخصوص صورة الموشح ذى الخرجة العامية ، فيشير الى دور العامة المخرب فى الاندلس . فقد مارسوا دورا فعالا فى إشعال الفتن ، وإسقاط حكام والإتيان بحكام آخرين . إنه دور لم يدرس حتى الآن لكن من يقرأ أحداث الأندلس يجد أن هذا الامر كان خارجا على نواميس العصور الوسطى ، وبالتالى فإن ثقافتهم الشعبية قامت بغزو الثقافة الرسمية فى هذه البقعة منها : الموشح المعرب . ولقد قاوم الموشح المعرب بشكل مطرد هذا الغزو العامى فى العصر الغرناطى حيث تكاد تختفى تماما الخرجة العامية (أو هى اختفت نهائيا على حد علمى حتى الآن) . فالموشح المعرب محاولة لوقف دور العامة السياسى داخل العمل الأدبى انعكاسا لمغزى المقاومة الرسمية لذلك ، ومع هذا فإن الإيقاع ظل يحمل صدى هذا الدور حتى النهاية ، لأن هذا الدور لم يتوقف قط ، فغزا غزوا مظفرا من جديد فى شكل أدبى جديد هو الأزجال .

---

(١) الزجل فى الاندلس ص ٩٩ ، كذلك ص ٨٣ يشير الى عيد العنصرة .

(٢) ابن قزمان ، الديوان ، تحقيق ف. كورينطى ، المعهد الاسبانى العربى للثقافة ، مدريد ١٩٨٠ ، زجل ٥٠ ص ٢٣٨ . الكلمات الرومانثية هى «منيان ذى بشك» أى : غدا سيكون عيدا (لو أن نراك) .

ومن العناصر المثـيرة للانتباه فى الـواقع والتى يمكن أن تتمثـل فى البنـاء التوشيحى موضوع الخمر فى الأندلس . إن تبنى الأندلسيين لمشروع أبى نواس الفنى (١) ، يمكن أن نربطه بالتحرر الأندلسى رغم التشدد المالكى ، كما ينبغى أن نربط ذلك كله بالكروم باعتبارها عصبا للاقتصاد ، وبالتالى لصناعة الخمور ، حتى أصبحت الكروم والخمر من عناصر الوحدة واللقاء فى مجتمع الأندلس كما يبرز ذلك زجل ابن قزمان وكثير من الأخبار ، وهذا الوضع الراسخ قد يكون وراء موقف فقهـاء الاندلس المتسامح حول حد الخمر ، بـل وحرجهم من تنفيذه ، لأن القرآن الكريم لم ينص عليه ، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقم هذا الحد على أحد فى حياته . ويشير الخشنى فى «قضاة الاندلس» الى ذلك : «وما أتى عن القضاة فى هذا المعنى خاصة من الإغضاء عن السكـارى والتغافل لهم ، والرقة عليهم ، فلا أعرف له وجها من الوجوه يتسع لهم فيه القول ، ويقوم لهم به العذر الا وجها واحدا ، وهو أن حد السكر من بين الحدود كلها لم ينصه الكتاب المنزل، ولا أتى فيه حديث ثابت عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإنما ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى برجل قد شرب فأمر أصحابه أن يضربوه على معصيته ، فضرب بالنعال ، وبأطراف الأردية ، ومات النبى صلى الله عليه وسلم ولم يحد فى ضرب السكران حدا يلحق بسائر الحدود ، فلمـا نظر أبو بكر رضى الله عنه فى ذلك بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، واستشار أصحابه قال له على بن أبى طالب رضى الله عنه : من شرب سكر ، ومن سكر هذى، ومن هذى افترى ، ومن افترى وجب عليه الحد . أرى أن يضرب الشارب ثمانين . فقبـل منه الصحابة . فذكر أهل الحديث أن أبـا بكر عند موته قـال : ما شىء فى نفسى منه شىء غير حد الخمر ، فإنه شىء لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما هو شىء رأيناه من بعده (٢) .

---

(١) قد أشرنا الى ذلك مرارا فى حديثنا عن ابن عبد ربه وفى مواضع متعددة ، ومن المهم مراجعة الأشعار ، التى يوردها صاحب العقد لأبى نواس وكيف أنه يعظمه ويثنى عليه . أخيرا لدينا شعراء أندلسيون تفرغوا لممارسة تنفيذ هذا المشروع ، فصاحب الجذوة يورد تحت الترجمة ١٩١ ترجمة أحد الشعراء : «أحمد بن محمد الجيانى ، المعروف بتيس الجن ، شاعر خليع ، يجرى فى وصف الخمر مجرى أبى الحسن ابن هانى ، لم أجد من شعره شيئا الا فيها» . ومن يراجع زجل ابن قزمان يدرك دور الخمر الكبير ليس فى الشعر فحسب بل فى الحياة الاندلسية . وتيس الجن هذا «ظرف» أندلسى «لمقارعة» ديك الجن فى بغداد . وشهرة الشعر الاندلسى فى الطبيعة أمر لا جدال فيه، وقد غطت هذه الشهرة عـلى ما كان ينبغى أن تحتله أشعار الخمر من مكانة ، لـكن الامر معقد ، فأشعار الخمر دائما تمثل عنصرا جزئيا فى شعر الطبيعة ، فلا طبيعة – فى معظم الأحوال – بدون خمر ، ولا خمر بدون طبيعة .

(٢) قضاة قرطبة ص ٥٩ أيضا راجع ص ١١٤ كيفية تخلص القضاة من ضرورة اقامة الحد ، ثم فى نفس الموضوع ص ٩٨ .

هذا التغافل يقابله تشدد فى الدين من لدن القضاة بل والعامة كما نرى فى معظم المصادر الاندلسية ان هذا التناقض ليس الا موشحة تمثل واقعا بالغ التعقيد ، فالتشدد فى الدين مع وحدة المذهب (المالكى) وسيلة لمواجهة عدو متشدد فى دينه أيضا واحدى المذهب (كاثوليكى) ، والتغافل فى الخمر ليس فعلا ارادیا يقلل من الشدة فى الحق وفى الدين ، وانما هو منفذ أتاحته خصوصية تاريخية لحد الخمر من أجل المحافظة على عنصر اقتصادى واجتماعى من عناصر الوحدة ، ولذلك عندما يأمر الحكم بمراقة الخمر يأمر أيضا باقتلاع أشجار الكروم وتحريم زراعتها ، فيقنعه مستشاروه بأن الناس تصنع الخمر من فواكه متعددة ، فلا فائدة من اقتلاع الكروم فيتراجع عن هذا الامر الأخير المهول والمدمر للاقتصاد ولطاعة العامة ، وقد كثر المنتزون فى كل مكان . وكان أمر الحكم المستنصر رمزا لنهاية الوحدة فى الاندلس ، وبداية لتجاوز نفوذ الفقهاء الحد ، فهم لم تعد تعنيهم وحدة الاندلس بل يسعون للقضاء عليها ، فبعد موت الحكم يتولى فقيه السلطة ويقضى فعليا على حكومة الوحدة الوحيدة فى الاندلس (البيت الأموى (١)) ، ثم يقفز القضاة والفقهاء كثيرا على كراسى ملك الطوائف .

ان هذا المجتمع المعقد يبحث عن رموز لوحدته ، فى نفس الوقت الذى يختلق أسبابا للتمزق . والموشحة بين خرجة أجنبية وأقفال وأبيات تمثل الوحدة الممكنة والتمزق المحتمل ، وبهذا نفسر زيادة عدد أجزاء كل غصن من أغصان البيت فى الموشحة وعدد فقرات كل قفل من أقفالها ابتداء من نهايات عصر ملوك الطوائف. وكلما تأخر الزمن وازداد التمزق ، وفى أواخر العصر الغرناطى عندما توحدت

---

(١) تعلق عدد من كبار المفكرين والشعراء بأذيال البيت الأموى وعلى رأسهم ابن حزم ومنهم ابن زيدون وابن شهيد ، وقد لاقى أنصار البيت الاموى أسوأ مصير على يد المنصور ابن أبى عامر، ثم على يد ملوك الطوائف . والسر – فى رأيي – لتمسك هؤلاء بالأموية هو ادراكهم لخصيصة نراها جيدا فى المسرح الاسبانى وهى أن أهل اسبانيا يقدسون الملك ، ويرون فيه رمز الوحدة الأكبر الذى يوحد وطنهم متعدد القوميات ويدافع عن الكنيسة الكاثوليكية .

ومن الطريف فى موضوع أمر الحكم بإراقة الخمر مراجعة قصيدة يوسف بن هارون الرمادى فى رثاء الخمر ، وكأنه يفتتح قصائد رثاء الممالك والمدن فى الاندلس . ومن القصيدة ندرك بعض العنف والهمجية فى تنفيذ الأمر :

فقل للمسفحين لها بسفح وما سكنته من ظرف بكسر
وللأبواب احراقا الى ان تركتم أهلها سكان قفر
تحريتم بذاك العدل فيها بزعمكم فلم يك من تحر
فان أبا حنيفة وهو عدل ...

ثم يحكى شعرا قصة أبى حنيفة المشهورة مع جاره السكير وعطفه عليه . (بغية الملتمس ص ١٨ – ١٩) .

مملكة غرناطة الصغيرة ولم تعد تقبل وجود عناصر أجنبية سوى بقـــايا العرب والبربر ، عادت فقراتها وأجزاؤها سيرتها الأولى من الالتئام والاعراب .

لقد نشأت الموشحة فى القرن الثـــالث ، حيث كانت عنـــاصر الوحدة تتزايد ، وعناصر التمزق تتجه لشىء من السكون والدعة وصل مداه فى عصر النـــاصر . وكان هذا العصر هو أنسب بيـــئة لاستمرار حركـــة الخروج عـــلى عمود الشعر العربى ، وعلى موسيقى اسحق الموصلى الموغلة فى الكلاسيكية ، وكان رسول هذه الحداثة الى الاندلس هو زرياب ، ومحتويات قصور بغداد وأيام العروس فى عصر عبد الرحمن ، وكان لابد لهذه الحداثة أن تتفـــاعل مع الواقع لقدرة زرياب على استيعابه والدخول فى نسيجه لصالح عنـــاصر الوحدة التى كان عليه اكتشافها وتنميتها ، وقد نجح لينال صفة الأسطورة فى تـــاريخ الاندلس ويتجاوز مكـــانة الموسيقار التقليدية الى مكـــانة خاصة خارقة للعادة فى مجال الثقـــافة والتوجيه الاجتماعى بصفة عامة . ان هذا الرجل قد أثبت بمـــا لا يدع مجالا للشك الدور العظيم للفن فى تاريخ الانسان .